DE GAULLE (1890-1970)

الفصل الرابع عشر

فوشيه السفاح

الرجل العجيب الذي أغرق فرنسا في الدماء...

ومن أروع القصص التي قرأتها أيضاً جوزيف فوشيه وهو شخصية جبارة من شخصيات التاريخ. ولكنه كان يؤثر العمل في الخفاء على العمل جهاراً. ولهذا، فإن لمعان هذه الشخصية في التاريخ لا يتناسب مع الأعمال المدهشة التي قام بها. ويروي ستيفان زفاريج سيرة هذا الرجل العجيب الذي شارك في حكم فرنسا فترة من الوقت.

ونحن إذا تصفحنا المذكرات التي تركها نابليون وروبسبيير وتاليران وغيرهم من رجال الثورة الفرنسية، والكتب التي وضعها المؤرخون الفرنسيون من ذلك الوقت إلى يومنا هذا، لما وجدنا واحداً منها يخلو من نقد جارح موجه إلى « جوزيف فوشيه » أو من كلمة لاذعة يصف بها كاتبها ذلك الرجل الغامض. فقد قيل أنه ولد خائناً، وأنه دساس نمام، وأنه كثير التلون كاذبًا منافقًا مخادعًا، وأن نفسه الخسيسة جعلته يرتكب جميع ما يتصوره عقل إنسان من الأعمال الدنيئة. نعم، قيل فيه كل هذا، ولا يتحدث عنه المؤرخون إلا بلهجة التهكم والازدراء، ويضعونه في مرتبة ثانوية بالنسبة إلى أبطال التاريخ الذين ملؤوا الدنيا قعقعة وضجيجاً. ومن وقت إلى آخر، يتناول القصاصون ومؤلفو المسرحيات شخصية جوزيف فوشيه، فيظهرونها في أقاصيصهم أو في مسرحياتهم في مظهر يدعو إلى السخرية أو الاشمئزاز. وصفوة القول، إن جوزيف فوشيه كان بلا شك أكره شخصية بين الشخصيات التي امتازت خلال الثورة الفرنسية الكبرى، وقد ظلت شخصيته مكروهة على كر الأيام، ولا تزال مكروهة حتى أيامنا هذه.

والكاتب الفرنسي الوحيد الذي وصف فوشيه بأنه عبقري - ممتاز، هو بلزاك، الذي قال عنه أنه « الوزير النادر » بين وزراء نابليون. كما قال عنه أيضاً في إحدى رواياته : إن نفوذه وسلطانه على الناس كانا في وقت من الأوقات يفوقان سلطان نابليون ونفوذه.

لقد عرف فوشيه كيف يعمل وراء الستار، وكان شأنه في الثورة الفرنسية وفي عهد الإمبراطورية شأن الآلات الصغيرة التي تتكون منها الساعة، ولكنها لا تظهر للعين، بل أن الذي يظهر هو عقرب الساعة الذي تحركه تلك الآلات الخفية.. ولم يكن فوشيه يتردد أمام أية وسيلة ما دامت توصله إلى أهدافه. فالغاية عنده تبرر الوسيلة، بكل ما في هذا التعبير من احتمالات. وقد انتقل من حزب إلى حزب، ومن هيئة إلى هيئة، ومن عهد إلى عهد، فخدم الجميع، واستغل الجميع، بغير أن يؤاخذه ضميره، وبغير أن يشعر بخجل أو بتردد لحظة واحدة قبل التحول من موقف إلى موقف. وقد وصل إلى أهدافه جميعها، وصم أذنيه عن كل ما سمعه ورآه من خصومه، الذين كانوا يأخذون عليه ذلك التقلب المعيب.

لاشك في أن جوزيف فوشيه لم يكن يتسم بخلق نبيل. بل أنه كان عديم الخلق، لا فرق عنده بين الخير والشر، والصدق والكذب، في سبيل الوصول إلى ما وضعه نصب عينيه. ولكنه كان يكره الظهور ويتحاشاه. وكانت لذاته الوحيدة في الحياة أن يتحكم في مصائر الناس ومقدرات الشعوب، من وراء الستار، وبغير أن يراه أو يشعر به أحد. وقد مرت على فوشيه أيام كانت فيها إرادته فوق إرادة الإمبراطور نابليون، لأنه كان يسير سياسة فرنسا حسب هواه، ويخضع نابليون لإرادته.

الصعود « ١٧٥٩ - ١٧٩٣ »

ولد جوزيف فوشيه في ٣١ مايو ١٧٥٩ بمدينة نانت. وكان أفراد أسرته من رجال البحر والتجارة. ولكن صحة جوزيف ومؤهلاته وميوله أبعدته عن الطريق التي سلكها أقاربه فآثر الرهبنة ودخل الدير، حيث عهد إليه بأعمال تتفق مع حالته الصحية. ولكن الشاب، الذي كانت المطامع تختمر في صدره، لم يرسم كاهنا لأنه قرر ألا يكون وفياً لأحد في حياته، حتى ولا لله عز وجل ! ولو أصبح كاهناً لربط نفسه بالفضيلة برباط وثيق، وهذا ما كان يريد أن يتجنبه.

قضى فوشيه عشرة أعوام في الدير، فكانت له بمثابة مدرسة تعلم فيها كيف يسكت، كيف يتحكم في إرادته، وكيف يراقب الناس ويسبر غور نفوسهم، وكيف يضبط أعصابه فلا يدع أسارير وجهه تنم عن الشعور والعواطف التي تختلج في صدره. ومما يجمل ذكره هنا أن بعض زعماء الثورة الفرنسية الكبرى خرجوا من صفوف الكهنة والرهبان. وكان ألمعهم تاليران وسييس، وفوشيه.

وفي أثناء إقامة فوشيه في الدير، عرف مكسيمليان روبسبيير، وكان محامياً صغيراً، وأوشك أن يتزوج أخته. وروبسبيير هو ذلك الذي أصبح فيما بعد صاحب أرفع منصب في فترة من فترات الثورة.

وعندما بدأت فرنسا تضطرب، وأنشئت فيها الأندية السياسية للمطالبة بالإصلاح. وصحا الوعي القومي الشعبي من سباته، نزع فوشيه عنه نهائياً ثوب الرهبنة، وقرر أن يخوض معمعة التحرير. وما مرت أسابيع حتى كان الراهب القديم رئيساً لأحد الأندية في مدينة نانت، وهو « نادي أصدقاء الدستور ».

وأدرك أن المال لابد منه لكل من أراد أن يصل إلى النجاح والتوفيق في ميدان السياسة، فتزوج ابنه تاجر معروف، ليس فيها شيء من الجمال، ولكن عندها من المال ما يكفي. وفي عام ١٧٩٢، رشح نفسه للانتخابات النيابية، وفاز بالمقعد الذي يرجوه. بعد أن قطع لناخبيه العهود والوعود، وإن كان في قراره نفسه، يعتزم ألا ينفذ منها إلا ما يريد تنفيذه.

وكان حينذاك في الثانية والثلاثين من العمر. وكان عدد أعضاء الجمعية التأسيسية ٧٥٠ عضواً، وهو واحد منهم.

جلس فوشيه بينهم، وجعل يفكر في الحزب الذي سينتمي إليه.. ولم يطل تفكيره طويلاً، فهو دائماً مع القوي، دائماً مع الحزب القابض على زمام الأمور، مع الحزب الذي يجمع حوله أغلبية المجلس. وهو دائماً صديق الرجل الذي يخضع له الحزب، ومن ثم يخضع له المجلس وتخضع له البلاد ! وهذا سر قوته. فقد عرف هذا الرجل طوال حياته كيف يختار الوقت المناسب للانتقال من حزب إلى حزب، وكان دائماً يساعد غيره على ارتقاء أعلى المناصب، ويبقى هو وراء الستار، على شرط أن يظل قابضاً

في الخفاء على مقدرات ذلك العظيم الذي يكون قد رفعه إلى المجد ! فله السلطة الفعلية، ولغيره المظاهر !

وجاء يوم ١٦ من يناير عام ١٧٩٣، وهو اليوم الذي حدد لاتخاذ قرار فيما يتعلق بالملك لويس السادس عشر، الذي كان زعماء الثورة قد جردوه من الملك وسجنوه. وكان على كل عضو في المجلس أن يعلن رأيه جهازاً، وبكلمة « لا » أو « نعم » رداً على السؤال الآتي : « هل الملك يستحق الإعدام أم لا ؟ »

وكان رأي فوشيه في بادئ الأمر أن يعفو المجلس عن الملك، وأن الحكم بالإعدام على صاحب التاج عمل يتسم بالفظاعة والوحشية. ووضع فوشيه مشروعاً لخطاب عزم على إلقائه في المجلس مؤيداً فكرة العفو عن الملك. ولكن هذا الرجل المنقلب النفعي، المساير لكل أغلبية، أدرك في الليلة التي سبقت ذلك اليوم التاريخي أن هذه الأغلبية تميل إلى إعدام الملك، فقرر أن يغير رأيه وينضم إلى صوت الأغلبية. وهكذا وقف فوشيه، عندما جاء دوره للاقتراع، وقال بصوت خافت : «الموت !» وأصبح واحداً من قتلة الملك لويس السادس عشر !

ومنذ ذلك اليوم، راح الرجل يدافع عن مبادئ الثورة، ويدعو إلى القتل والنهب، وثارت ثائرته على كل ما يتصل من قريب أو من بعيد بالأسرة المالكة، وبطائفة الأشراف والنبلاء، ورجال العهد البائد، وامتدت ثورته إلى كل ما يتصل أيضاً بالكنيسة والدين، فعهد إليه المجلس بإقرار النظام في الأقاليم، فانطلق يقتل ويحرق ويدمر، ويروي نقمته من الأغنياء ورجال الدين. وبعد تلك الأعمال العنيفة الدموية التي قام بها فوشيه في الأقاليم، أعلن زملاؤه في المجلس أنه خير من طبق مبادئ الثورة، وأنه أشد المتطرفين تطرفاً !..

الحديد والنار في ليون « ١٧٩٣ »

تعد المذبحة التي وقعت في مدينة ليون: والتي دبرها وأدار دفتها جوزيف فوشيه، من أشد صفحات الثورة الفرنسية وحشية. وليون هي المدينة الثانية في فرنسا، وفيها مركز التجارة والسياسة والصناعة في الجزء الجنوبي. وفي عام ١٧٩٢ كان عدد العمال في هذه المدينة عظيماً، وجميعهم أعداء للملكيين وللرأسماليين. وكان يتزعم العمال وأعضاء

الأندية الثورية في ليون رجل يدعى « شاليه » وهو كاهن قديم اعتنق المبادئ الجديدة وراح يدعو الناس إلى اعتناقها بقوة وإيمان. ولم تكن مدينة ليون قد خضعت بعد لنفوذ الهيئات الثورية، فأراد القابضون على الحالة فيها أن يلقوا على الشعب درساً ، فقبضوا على شاليه عند قيام أول مظاهرة ثورية، وحكموا عليها بالإعدام، ونفذوا فيه الحكم بصورة بشعة مثيرة. وكان هذا العمل إيذاناً بانفجار مرجل الثورة في المدينة. وقررت الهيئات الباريسية أن ترد على ذلك الحادث بضربة قاضية، وهي تدمير المدينة العاصية، ومحوها من الوجود، وإقامة نصب تذكاري على أنقاضها تحفر عليه هذه الكلمات : «لقد حاربت مدينة ليون مبادئ الحرية، فهدمت مدينة ليون ! » .

ووقع الاختيار على رجل يدعى « كوتون » لتنفيذ هذا القرار. ولكنه لم يقم بمهمته على النحو المنشود، فأعيد إلى باريس، وأرسل المجلس مكانه رجلين من أبعد زعماء الثورة تطرفاً، هما كولو ديربوا وجوزيف فوشيه : الأول ممثل قديم، والثاني راهب قديم !

لم يكن أحد منهما يحب القتل وإراقة الدماء. ولكن الظروف جعلت منهما قاتلين وشاربي دماء ! وهذا ينطبق على معظم رجال الثورة الفرنسية، التي ذهب ضحيتها عشرات الألوف من الناس. فإن الذين أداروا دفتها لم يكونوا راغبين في سفك الدم، ولكن تطور الحوادث والظروف جعلتهم جميعاً يقتلون ويأمرون بسفك الدم !

وصل كولو ديربوا ورفيقه فوشيه إلى ليون، وباشرا في الحال تنفيذ المهمة التي أوفدا للقيام بها. وكان أول ما صنعاه تجريد الكنائس من محتوياتها، وحرقها، وتنظيم حفلة في أكبر ميادين المدينة لتمجيد ذكرى شاليه « شهيد الحرية » وبدا بعد ذلك إعدام السكان بالجملة. وليس في صفحات الثورة الفرنسية ما هو أشد فظاعة من تلك الصفحة التي خطها فوشيه ورفيقه في ليون، فقد أعدم من سكانها ألف وستمائة شخص في أسبوع واحد. وبلغ عدد الذين قتلوا بالرصاص أو على المقصلة أكثر من ألفين. وهدمت مئات المنازل على رؤوس أصحابها، وأضرمت النار في مئات أخرى، ولو كانت المدينة قد سقطت في يد جيش مهاجم من الأعداء، لما فعل في السكان ما فعله فوشيه وديربوا.. ! ومنذ ذلك الوقت عرف فوشيه بين زملائه باسم « سفاح ليون » ولكنه حاول فيما بعد التخلص من هذه التسمية، عندما اضطرته الظروف إلى الظهور في غير مظهر الثائر

المنتقم للشعب من ظالميه. بل حدث عندما أصبح فوشيه وزيراً في عهد الإمبراطورية والملكية، أن راح الرجل يجمع الكتب والمذكرات التي تصف حوادث ليون، ويحرقها ظناً منه أن ذلك قد يمحو ذكريات وحشيته من الأذهان.

الصراع ضد روبسبيير « ١٧٩٤ »

كانت الأعمال التي اقترفها فوشيه في ليون فظيعة إلى حد أن المجلس نفسه، بباريس، ضج من هول الأخبار التي نقلت إليه، فأرسل من يدعو كولو ديربوا أولاً، ثم فوشيه بعده، ليقدما له حساباً عن الوسائل والأساليب التي اتبعاها في تنفيذ أوامر المجلس، وذلك للشكايات العديدة التي تقدم بها فريق من الخصوم السياسيين.

وكان روبسبيير يسيطر على المجلس سيطرة تامة. وروبسبيير هو الطاغية الذي يطبق مبادئ الثورة تطبيقاً صارماً، والذي لا يحيد عن طريق النزاهة والصدق قيد أنملة. وهو الذي ساق إلى المقصلة جميع الذين خالفوه في الرأي من خطباء الثورة وكتابها وشعرائها ومفكريها، لأنه رأى فيهم جنوحاً عن السبيل القويمة. وهو الذي يحمل موجدة على فوشيه ويضمر له الشر. فكيف السبيل إلى التخلص من نقمته !

فعل فوشيه ما لم يكن في استطاعة أحد من جميع أولئك الزعماء والقادة أن يفعله. وفوشيه كما قلنا لا يتردد أمام قول أو عمل من شأنه أن ينقذه من ورطته حتى لو كان فيه إذلاله. وهذا ما حدث في هذه المرة. فقد ذهب فوشيه إلى روبسبيير في بيته، وطلب منه الصفح عما اقترفه من فظائع سودت وجه الثورة وأساءت إليها. ولم يكن أحد حاضراً عندما استقبل روبسبيير ذلك الزائر الخبيث الماكر. ولكن الذي يعرفه الناس، هو أن فوشيه لم يخرج من بيت الطاغية مرتاحاً، وأن روبسبيير قد أنبه على سلوكه، وهدده بأن حياته في خطر. ولم يكن روبسبيير ليمزح في تهديده، فهو الرجل الذي يناصر الفضيلة، ولا يدع إلى ضميره سبيلاً للرشوة، ولا يغفر للرجل الذي يخالفه في الرأي ويخرج عن جادة الصواب.

إذن، فالحرب قد أعلنت بين روبسبيير وفوشيه. فمن يكون المنتصر ؟ الرجل الصريح أم الرجل الخبيث ؟ الصادق أم الكاذب ؟

كان الصراع بين الرجلين عنيفاً. وهو مرحلة من أروع مراحل الثورة الفرنسية

الكبرى. وعندما تحدى أحدهما الآخر، لم يكن منهما يقدر مزايا خصمه ومواهبه التقدير الكافي. ولهذا، كان الصراع رهيباً.

جعل روبسبيير يحارب خصمه جهاراً. وراح فوشيه يحارب خصمه في الخفاء. الأول يخطب، والثاني يُحيك الدسائس. وفجأة، أعلن في باريس أن جوزيف فوشيه قد فاز في انتخاب الرياسة لنادي اليعقوبيين، وهو أقوى الأندية الثورية وأوسعها سلطة ونفوذاً. وأصبح في استطاعة الرجل أن يهدد روبسبيير في كيانه.

صعق روبسبيير عندما بلغه هذا الخبر. وأدرك إلى أي مدى يفوقه ذلك الخصم في العمل وراء الستار. فإن نادي اليعقوبيين كان يمثل المبادئ الثورية الخالصة، وكان كل واحد من أنصار هذه المبادئ يسعى للحصول على عضوية النادي، فضلاً عن رياسته، وإذا طرد أحد الأعضاء من النادي، فإن هذا معناه أنه غير وفي لمبادئ الثورة، وأهل للموت!

إذن، فلابد لروبسبيير من طرد فوشيه، آجلاً أو عاجلاً، من رئاسة النادي، ثم من عضويته. ولكن الطاغية كان يشعر بأن المهمة صعبة، وبأن القضاء على فوشيه، الذي يأبى مواجهة خصمه في وضح النهار، ليس أمراً يسيراً. ولكن الرجل الذي كان يأمل أن يظل صاحب الكلمة الوحيدة النافذة في فرنسا، أقسم أن يقضي على ذلك الخصم أو أن يقضي على نفسه!

وفي إحدى جلسات الجمعية ألقى روبسبيير خطاباً شديد اللهجة، يعد من أبدع الخطب التي ألقاها ذلك الرجل الذي كان سيد المنابر في عصره، وحمل فيها على فوشيه حملة شعواء، فاتهمه بأنه أساء إلى الثورة وإلى الجمهورية، وأن سلوكه في ليون وغيرها من المدن، في أكثر من مناسبة، كان بمثابة معول زعزع أركان النظام الجديد. وخرج فوشيه من تلك الجلسة مطأطئ الرأس، وهو يشعر بأن شبح الموت يتابعه. وعلم بعد ذلك أن روبسبيير قد اتفق مع ثلاثة من أنصاره على أن يطلب هؤلاء من المجلس إصدار حكمه بإعدام فوشيه.

وشاءت الأقدار أن تصاب ابنة فوشيه الوحيدة، في ذلك الظرف الرهيب، بمرض لا يرحم. وكان فوشيه زوجاً صالحاً وأباً رحيماً، ولم ينبض قلب هذا الرجل بعاطفة

المحبة إلا تجاه زوجه وابنته.

ماتت الابنة في الوقت الذي كان فيه فوشيه مضطراً إلى الاستعداد لمواجهة الحكم بإعدامه، ولكن موت ابنته جعله يستخف بموته هو. وبعد الانتهاء من دفن المسكينة، عول فوشيه على أن يضرب ضربة اليأس، وقال في نفسه: «غداً سيقضي على واحد منا !».

وهذا ما حدث.. فقد استغل فوشيه في تلك الأيام جميع مواهبه، وأطلق العنان لمكره وخداعه، وتمكن من جلب بعض الناقمين إلى صفه، فتآمر معهم على قلب روبسبيير من منصبه الرفيع، بحجة أنه يسعى إلى إقامة ديكتاتورية تحل محل الجمهورية وتخلف الملكية البائدة. وكان في مقدمة المتآمرين تاليان وباراس. ونجحت المؤامرة، وبدل أن يصدر الحكم بإعدام فوشيه ورفاقه، قامت حركة شعبية خارج المجلس، اشترك فيها الجيش، وأدت إلى إسقاط روبسبيير وسوقه إلى المقصلة حيث أعدم أمام الجماهير الصاخبة، التي تصفق دائماً للقوي المنتصر، وتصفر له إذا ما ضعف وانهزم !

ولكن أصدقاء الزعيم الراحل جمعوا فيما بعد جموعهم، وراحوا يطلبون الثأر لروبسبيير، فخاف فوشيه، وأدرك بثاقب نظره أن فرنسا مقبلة على انقلابات واسعة، وأن خير ما يصنعه في تلك الحقبة من الثورة، أن يتجنب الظهور وأن يمتنع عن كل نشاط. فاختفى عن الأنظار، ومضت ثلاثة أعوام لم يسمع فيها أحد في فرنسا باسم جوزيف فوشيه !

الوزير ! « ١٧٩٩ - ١٨٠٢ »

إن الرجل الذي يمتاز عن سواه بالفكر الراجح، يحتاج، من وقت إلى آخر، إلى عزلة يخلو فيها إلى نفسه، ويرسم خطة العمل للمستقبل. وهذا ما صنعه فوشيه بعد فوزه على روبسبيير.

غير أن العزلة التي لجأ إليها فوشيه لم يكن فيها ما يرضى نفسه التواقة إلى السلطة، وتلك العزلة هي الفاقة والفقر، فقد قضي فوشيه ثلاثة أعوام بعيداً عن الناس، لأنه كان يخشى الناس، ولم تكن حالته المادية تمكنه من الإنفاق على نفسه وعلى زوجه والطفلين اللذين أنجبهما بعد وفاة ابنته الأولى. فقد أقام في حجرة حقيرة، فوق سطح منزل في حي من أحياء باريس القديمة، ولم يكن يعرف في يومه من أين يجيء بثمن القوت لغده. فقد

أضاع هذا الرجل كل شيء.. خرج من ندوة النواب فانقطع عنه راتبها، وحدثت ثورة في جزيرة سان دومنجو فقد فيها الثروة الصغيرة التي ورثها عن أسرته وأما المال الذي أخذه من زوجه، فقد أنفقه للوصول إلى المناصب التي شغلها من قبل. لقد غدا جوزيف فوشيه معدماً لا يملك شيئاً. وابتعد عنه أصدقاؤه لأنهم لم يعودوا في حاجة إليه، بل أصبح هو في حاجة إليهم. وعلى هذه الحال، رآه أحد رفاقه السابقين. باراس الذي تآمر معه على قتل روبسبيير.

وكان باراس يتقدم في مدارج السياسة ويعمل لارتقاء أعلى المناصب. ولم يكن ذلك الرجل يجهل المزايا الكامنة في شخص فوشيه، فأراد أن يستخدمه لأغراضه، واتخذ منه جاسوساً ينقل إليه الأخبار ويسقط أنباء خصومه. وعندما أصبح باراس رئيس مجلس «الديركتوار» كان فوشيه قد جمع مبلغاً من المال كافياً للعودة إلى الحياة العامة، وكان خصومه القدماء قد اختفوا من الميدان.

وهنا تبدأ مرحلة جديدة، مرحلة السعي للحصول على الثروة، أيا كانت الطريق والأساليب المؤدية إليها. ولم يكن باراس من الأشخاص الذين يدعون لضمائرهم سلطة على أعمالهم، فهو أيضاً يحب المال ويريد الوصول إلى الثروة. فاتفقت أغراض الرجلين، باراس وفوشيه، وما مضت أعوام قلال حتى كان فوشيه قد شارك طائفة من التجار والسماسرة والعملاء الذي يتاجرون بالأسلحة ويوردون المؤن للجيوش المحاربة، ووضع باراس نفوذه في خدمتهم، وخرج الاثنان من هذه الصفقات بمبالغ هائلة من المال، وأصبح فوشيه غنياً بعد أن كان فقيراً!

وفي سنة ١٧٩٨، عينه باراس ممثلاً لفرنسا في هولندا، ثم استدعاؤه ليشغل منصب وزير البوليس في وزارة الجمهورية بباريس!

فوشيه وزير!... إن هذا النبأ جعل العاصمة الفرنسية ترتعد خوفاً من فوشيه، الرجل الذي أغرق ليون بالدم، وأحرق الكنائس، ودمر البيوت! ولكنهم دهشوا عندما رأوه، بعد أن أصبح وزيراً، يسلك مسلكاً كله اتزان وتعقل. وكان أول عمل أقدم عليه، إغلاق نادي اليعقوبيين الذي كان رئيسه في وقت من الأوقات!

وبعد ثلاثة أشهر قضاها في وزارة البوليس، أصبح فوشيه الرقيب الوحيد على أعمال

obeikandi.com

الوزراء والموظفين، حتى قال عنه الوزير تاليران فيما بعد : « أن هذا الرجل يتدخل فيما يعنيه، ثم فيما لا يعنيه ».

وإلى فوشيه يعود الفضل في إنشاء أول وزارة للبوليس في العالم، نهجت الوزارات الأخرى على نهجها في مختلف البلدان. ومعظم الأنظمة واللوائح التي ما تزال إلى أيامنا هذه نافذة في دوائر البوليس وإدارات الأمن العام ووزارات الدعاية والبوليس، يرجع الفضل في وضعها إلى جوزيف فوشيه. فقد ابتكر هذا الرجل، في وزارته، نظاماً للإدارة وجلب الأخبار والمعلومات وحفظها والعودة إليها، يعد فريداً في نوعه. ولكنه وضعه بحيث إذا انقطع الخيط، أو إذا اختفت اليد التي تحركه - أي يد فوشيه - فإن النظام كله ينهار !

إن جوزيف فوشيه في استطاعته أن يقدم للحكومة أو لرئيسها أي نوع من أنواع المعلومات المرغوب فيها، ولكنه لا يفعل.. لأنه أنشأ ذلك النظام لخدمة نفسه، وأغراضه، لا لخدمة باراس، أو الديركتوار، أو نابليون فيما بعد. فهو لا يخرج من أدراج مكاتبه غير الورقة أو الوثيقة التي يريد إخراجها. أما الباقي، فإنه يحتفظ به لنفسه، فقد يحتاج إليه !

إن بقاء فوشيه بضعة أشهر في وزارة البوليس جعله أوسع الناس اطلاعاً على الحالة في البلاد، ودقائقها، وعلى أخبار الناس الخاصة والعامة. ورجل هذا شأنه، ينظر إليه الغير بخوف ووجل، ويخطبون وده. وهذا ما حدث.. فإن فوشيه، الذي كان الناس يتحاشونه عندما كان فقيراً، أصبح الآن موضع العناية والاحترام والخوف، بعد أن خرج من بؤرة الفقر إلى ذروة السلطة والجاه والثروة !

وعندما كان الجنرال بونابرت في مصر، كان فوشيه مطلعاً بوساطة جواسيسه على أعمال القائد الطموح وأفكاره. وكان يعلم أنه عازم على العودة إلى فرنسا، ولكنه كتم الخبر عن أعضاء الديركتوار وزملائه الوزراء، لأنه تنبأ بأن بونابرت هو رجل المستقبل وسيد فرنسا في الغد. ولما وصل بونابرت فجأة إلى ساحل فرنسا عائداً من مصر، لم يسرع فوشيه إلى القبض عليه، كما كان يريد زملاؤه، بل مهد له سبيل الوصول إلى العاصمة، كما مهد له فيما بعد سبيل ارتقاء مدارج السلطة، فبقي وزيراً بجانبه !

تآمر نابليون مع فريق من قواد الجيش لقلب الحكومة وإعلان نظام جديد واختيار ثلاثة « قناصل » يحكمون البلاد كما كان القناصل الرومانيون يحكمون روما قديماً.

واشترك فوشيه في المؤامرة ضد الحكومة التي كان ما يزال عضواً فيها، لأنه أدرك أن المؤامرة سيكتب لها النجاح. وهو بفطرته لا يرتبط بعهد أو وعد، إلا إذا كان ذلك في صالحه.

وكانت الضحية الأولى، عند نجاح مؤامرة بونابرت، صديق فوشيه وولي نعمته من قبل.. باراس ! فإن وزير البوليس لم يتردد لحظة واحدة في خيانة صديقه، كما أن بونابرت نفسه كان مديناً لباراس بجانب من نجاحه وفوزه، عندما كان فقيراً معدماً كفوشيه شريكه في المؤامرة.

وقد قال باراس، أمام خيانة الصديقين له : « إنني أجد عزاء كبيراً في بقاء فوشيه بجانب بونابرت. فسوف يجيء يوم يثأر لي أحدهما من الآخر. لأن فوشيه سيخون بونابرت كما خانني ! » وقد تحققت هذه النبوءة.

ربط فوشيه نفسه إذن إلى عجلة نابليون، الذي بدأ نجمه في الصعود، فظل وزيراً في عهد « القنصل الأول » بونابرت واحتفظ بوزارته في عهد الإمبراطور نابليون الأول !

وزير الإمبراطور « ١٨٠٤ - ١٨١١ »

لم يكن في وسع فوشيه أن يظل بعيداً عن المشاحنات التي قامت في وقت من الأوقات بين بونابرت وزوجه الأول جوزفين، وبينه وبين إخوته أو بين لفيف من رفاقه القدماء. وأدرك نابليون، في عهد «القنصلية » أن سلطة فوشيه تتسع وتمتد إلى مختلف النواحي، فأراد أن يبعده مدة من الزمن عن الوزارة.. فبعد أن عينه عضواً في مجلس الشيوخ، طلب إليه أن يعتزل منصبه كوزير ويأخذ نصيبه من الراحة !

وابتعد فوشيه وهو يعلم أنه سيعود قريباً إلى منصبه. ولكنه في هذه المرة لم يسكن في حجرة حقيرة مجردة من الأثاث، بل ابتاع داراً جميلة فاخرة الرياش، أقام فيها، وأحاط نفسه بجميع أسباب الراحة والترف، ثم انصرف بكليته إلى البحث عن صفقات مالية وتجارية بغية مضاعفة ثروته. وكانت كل وسيلة، وكل طريق، يعد في نظرة مشروعاً، إذا كان يؤدي إلى كسب المال.

جمع الرجل ثروة طائلة تعد بالملايين. ولكنه لم ينزلق إلى ما ينزلق إليها عادة الأغنياء المترفون.. فظل لا يدخن، ولا يشرب الخمر، ولا يجلس إلى مناضد الميسر، ولا يعمد

إلى السهر واللهو والغناء والرقص..

وبالرغم من اعتزال فوشيه منصب الوزارة، فإنه لم يخلد إلى الهدوء ولم يضع حداً لنشاطه. بل واصل العمل في السر والخفاء، في انتظار اليوم الذي يعود فيه إلى الحياة العامة. وجاء ذلك اليوم لأن فوشيه نفسه أراده أن يجيء، وهو الذي اختاره. فإنه لم يضيع الوقت سدى وهو في عزلته، بل حاك خيوط مؤامرة جديدة. مع فريق من أعضاء مجلس الشيوخ، لا لقلب الحكم، بل لتعديل نظامه بحيث يصبح نابليون بونابرت « قنصلاً مدى الحياة » أو بعبارة أخرى، أشبه بملك يجلس على العرش بغير أن يحمل اللقب. وكان هذا في عرف فوشيه توطئة لإعادة الملكية لحساب نابليون، لأنه كان يشعر ويعلم أنه سيكون هو صاحب السلطة النافذة... وراء الستار !

ونجحت المساعي التي بذلها فوشيه لهذا الغرض، وانتخب نابليون قنصلاً مدى الحياة، ودفنت الجمهورية بيد الرجل الذي كان من قبل أشد أنصارها تحمساً، والذي اقترع لإعدام الملك لويس السادس عشر، وأغرق مدن فرنسا في دماء الملكيين !

وأعاده نابليون إلى منصبه كوزير للبوليس ! وتتابعت مراحل المؤامرة، فانتخب نابليون إمبراطورًا، وظل فوشيه بجانبه وزيرا للبوليس.

وبقي الرجلان مرتبطين ارتباطاً وثيقاً، مدة عشرة أعوام، الإمبراطور يحتل المكان الأعلى والمنصب الأسمى، ويظهر أمام العالم في ذلك المظهر الرائع الذي دونه التاريخ، وفوشيه لا يظهر أبداً، ولا يخرج من عزلته وراء الستار، ولكنه يدير سياسة فرنسا على هواه، وينفذ إرادته باعتبار أنها إرادة الإمبراطور.

قلنا: أنهما ظلا مرتبطين بروابط وثيقة، لأن مصير أحدهما كان معلقاً بمصير الآخر. ولكن نابليون كان يكره فوشيه. وفوشيه كان يكره نابليون. وكان كل من الرجلين يشعر بأنه في حاجة إلى الآخر.. نابليون لاتقاء شر أعدائه وخصومه، ومعرفة ما يدور في الخفاء، وفوشيه للبقاء في منصبه، ومواصلة دسائسه، وزيادة ثروته، والتلذذ بتنفيذ إرادته الخفية والتحكم في الناس بغير أن يراه أحد !

وكثيراً ما كان نابليون يغضب ويوجه إلى فوشيه عبارات قاسية جارحة. ولكن فوشيه كان يتقبل كل ذلك بهدوء. وكان يعطي الإمبراطور، من معلوماته، بقدر ما يريد أن يعطيه

فقط، لا بقدر ما يريد الإمبراطور أن يأخذ. وامتدت عيون جواسيسه إلى الأسرة المالكة، فكان يطلع يوماً فيوماً على كل ما يحدث في القصر وفي بيت كل من أقارب الإمبراطور. فهذا الرجل الغامض، المتكتم، كان يشعر بلذة حقيقية في الاطلاع على أسرار الناس والاحتفاظ بها في قراره نفسه. بل إن تلك كانت لذته الوحيدة في الحياة. وهو من هذا القبيل نموذج فريد بين الناس !

رفع نابليون نفسه إلى العرش بفضل الانتصارات التي أحرزها في ميادين الحرب. فكان لابد له من مواصلة الحرب لإحراز انتصارات أخرى، تضاف إلى انتصاراته السابقة، وتدعم مركزه. هذا ما كان يعتقده ذلك القائد العظيم. ولكن الشعب الفرنسي كان يتوق إلى السلم والراحة والتمتع بنعيم الحياة. وهذا أيضاً ما كان يراه بعض أعوان نابليون من الوزراء وحتى من القواد. وهذا التفاوت في الرأي جعل الأعداء يتقاربون ويتفاهمون. فإن تاليران، الوزير الداهية، كان يرى هذا الرأي أيضاً، كما يراه فوشيه من ناحيته، فلا غرابة أذن في أن يتفاهم هذان الرجلان بعد أن كانا على خلاف دائم في الرأي. فإن تاليران وفوشيه هما أبعد الوزراء نظراً وإدراكاً، وأوفرهم ذكاء. ووجوه الشبه كثيرة بينهما وعلى الخصوص من حيث التجرد من الضمير والخلق الكريم ! فكانت الغاية في نظر الرجلين تبرر الواسطة ! هذان هما الرجلان اللذان رأيا أن استمرار نابليون في حروبه سيجر على فرنسا الوبال.

وتواطأ الوزيران لوضع حد لهذه الحال، وعلم نابليون بما حدث، وكان في إسبانيا، فعاد إلى باريس مسرعاً، خوفاً من قيام مؤامرة ضده، يديرها الرجلان الخطران. وكانت النتيجة عجيبة.. فقد أخرج تاليران من الوزارة، ولكن فوشيه بقي فيها، وذلك بفضل ما أبداه أمام الإمبراطور من رياء ونفاق.

وفي عام ١٨٠٩، أنعم نابليون على فوشيه بلقب « دوق أوترانت» وجعل شارة الدوقية أسطوانة من الذهب التفت عليها حية ! فما أقرب هذه الشارة من أخلاق فوشيه : الذهب، والحية !

الصراع بين فوشيه والإمبراطور « ١٨١٠ »

عندما يتولى عظيم من العظماء العباقرة أمر دولة من الدول، لا يبقى للأشخاص

الذين يحيطون به غير الاختيار بين حالتين : فإما أن يخنقوا في نفوسهم كل رغبة في مزاحمته فيصبحوا له عبيداً، وأما أن يزاحموه فيصبحوا خصومه. وهذا الذي حدث في عهد نابليون، حدث مثله من قبل ومن بعد. وفوشيه أحد الذين أرادوا أن يوسعوا سلطتهم يوماً بعد يوم، فلا يستغرب إذن أن يصبح هذا الرجل في النهاية خصماً لنابليون.

كانت سلطة فوشيه واسعة إلى حد لا يتصوره العقل. فالوظيفة التي كان هذا الرجل يشغلها، جعلته في وقت من الأوقات يتحكم بمصائر الأفراد في داخل فرنسا، وبمقدرات الشعوب في خارجها. وكأننا به وقد أراد أن يثبت للملأ أن في استطاعة رجل غير نابليون أن يحكم العالم في الوقت الذي يحكمه فيه نابليون أيضاً !..

وكثيراً ما دبر فوشيه عملاً سياسياً في الخفاء بغير أن يطلع نابليون عليه، حتى إذا ما تم ذلك العمل ونجح فوشيه في تبريره، وجد نابليون نفسه أمام الأمر الواقع واضطر إلى القبول. ونسوق هنا مثلاً واحداً : فقد دار في خلد فوشيه ذات يوم أن يمهد السبيل لعقد صلح دائم بين فرنسا وإنجلترا، عدوتها اللدودة في ذلك الوقت. فدخل مع الحكومة البريطانية في محادثات طويلة دقيقة، بوساطة أشخاص غير فرنسيين، وبغير علم الإمبراطور، وقد خيل للحكومة البريطانية أنها تفاوض نابليون، بينما لم تكن تفاوض غير فوشيه. وكان الغرض الذي يهدف إليه فوشيه هو الوصول إلى اتفاق مع إنجلترا، يعلنه فيما بعد، ويحمل الإمبراطور على قبوله، فيعلم الفرنسيون أن فوشيه قد أتاهم بالسلم الذي ينشدونه. ولكن الحيلة لم تسفر عن نتيجة يرضى بها فوشيه، بل أسفرت عن نتيجة عكسية. فقد علم نابليون بما حدث، فغضب غضباً شديداً، وطرد فوشيه من منصبه، وأحل محله سافاري، دوق روفيجو، في وزارة البوليس.

طرد الإمبراطور فوشيه من الوزارة، ولكنه تدارك الأمر ولم يرغب في أن يتحول الوزير الخطير إلى عدو. فظل يلاطفه ويقربه إليه. ولم يقس عليه، خوفاً من أن يكشف الرجل القناع عن وجهه، ويفشي بالأسرار الكثيرة التي يعرفها.

ومما صنعه فوشيه، في ذلك الظرف الدقيق من حياته، أنه أخفى طائفة من الملفات والوثائق التي كانت في وزارة البوليس، وبعثر بعضها، ولم يترك لخلفه المسكين وسيلة واحدة من وسائل النجاح في مهمته. فقد وجد الرجل نفسه في وزارة لا يفهم من أعمالها

شيئاً، أضف إلى ذلك أنه وجد مصالحها خالية من أوراقها، مضطربة النظام، لأن فوشيه، قبل رحيله عنها، قطع ذلك الخيط الذي كان بيده، والذي كان يتصل بجميع تلك المصالح ويحرك القائمين عليها. إن وزارة البوليس الفرنسية لم يكن في استطاعة أحد أن يديرها غير فوشيه، لأن فوشيه أنشأها لنفسه لا لفرنسا ولا لغيره من الوزراء !

وترك فوشيه خلفه حائراً، وذهب إلى قصره، للإقامة فيه بضعة أيام، قبل سفره إلى روما لاستلام المنصب الذي عينه في الإمبراطور : منصب سفير فرنسا في مدينة البابوات !

ولكن سافاري رفع الأمر إلى نابليون، وشكا إليه خلو الوزارة من أوراقها وملفاتها ووثائقها، فأرسل الإمبراطور أمراً إلى فوشيه بأن يسلم إلى الوزير الجديد كل محتويات الوزارة كما كانت في عهده.

دخلت المسألة في دور جدي، وبدأ الصراع بين فوشيه والإمبراطور، فقد عزم الرجل على المقاومة إلى النهاية، مهما تكن العواقب في هذه المرة. ورد على دعوة الإمبراطور بأنه لا يحتفظ بشيء من محتويات وزارته السابقة، وأن الأوراق التي سحبت منها هي أوراق يعدها فوشيه « خاصة به » وقد أحرقها لأنها تتعلق بلفيف من إخوة الإمبراطور وأقاربه، ولا يليق أن تقع في يد أحد بعد أن ترك هو الوزارة !

ولكن الإمبراطور لم يقتنع بهذا الرد. وكرر أمره إلى فوشيه بوجوب تسليم وزارته كاملة. وهدده بالاقتصاص منه، وأرسل مدير البوليس لختم داره وإدراجه بالشمع الأحمر. وشعر فوشيه للمرة الأولى في حياته بأنه لن يقوى على الخروج ظافراً من هذه الورطة التي أرادها لنفسه والتي جاءت نتيجة لتحديه الإمبراطور القوي العنيد.

شعر فوشيه بأنه هالك لا محالة، فقرر أن يهرب من فرنسا، وهرب منها فعلاً، فذهب إلى إيطاليا، وانهارت أعصابه دفعة واحدة، فأصبح كالفأر المطارد، الهارب أمام سرب من القطط.

وقد أنقذته زوجه من هذا المأزق الحرج، لأنها أعادت الأوراق المسروقة إلى الإمبراطور، على شرط أن يعفو عن زوجها، ففعل نابليون ما طلبته منه الزوجة. أما الأوراق، فقد أعدمت في عهد نابليون الأول أو في عهد نابليون الثاني، مع جميع الوثائق والوسائل التي لم تكن لتتفق مع التاريخ الرسمي للإمبراطورية الفرنسية !

obeikandi.com

وأما فوشيه، فقد تلقى أمراً من الإمبراطور بالعودة إلى فرنسا، وتركت له الحرية التامة بأن يقيم حيث يريد، فأقام في قصره في مدينة أيكس. وبعد أن استرجع نابليون منه تلك الوثائق التي كان معظمها متعلقة بإخوته وأقاربه، عاد إلى معاملته بالحسنى خوفاً من مؤامرته وإفشاء أسراره التي كان فوشيه يعرف الكثير منها !

الاستراحة « ١٨١٠ - ١٨١٥ »

اعتزل فوشيه الحياة العامة ثلاث مرات : الأولى بعد عهد روبسبيير، والثانية عندما هرب إلى إيطاليا في عهد نابليون، والثالثة بعد عودته منها عندما أقام في قصره بمدينة أيكس.

إنه في الثانية والخمسين من العمر، ويملك ثروة طائلة تقدر بالملايين، وأملاكاً شاسعة، وقصوراً وعمارات، ويحمل لقب دوق دوترانت، والناس جميعاً يخشونه وإن كانوا لا يحبونه.

وانصرف الرجال إلى العناية بأملاكه، ولكنه ظل على اتصال بالأوساط السياسية والدوائر الحكومية بوساطة جواسيسه العديدين... فإن رجلاً كفوشيه لا يمكنه أن يركن إلى الهدوء التام والراحة الكاملة. وظن أن نابليون سيدعوه مرة أخرى لتولي منصبه في باريس. غير أن الإمبراطور لم يفعل لأنه لم يكن في حاجة إليه. فهو في أوج سلطانه ومجده، وأوربا بأسرها خاضعة له.

ومرت الأيام وفوشيه في عزلته، إلى أن أصيب الإمبراطور بسلسلة من الهزائم بعد غزو روسيا، فعاد من موسكو على رأس جيش ممزق، وجعل يجمع شمل رجاله استعداداً للصمود أمام الغزو الأجنبي، وراح يفكر في كل كبيرة وصغيرة، وفي تأمين الحالة في باريس بحيث لا يغتنم الفرصة أحد من الناقمين عليه ويقدم على التآمر لإسقاطه أو لإحداث ثروة.

وفكر في فوشيه !

ألا يجمل به أن يبعد هذا الرجل عن باريس في تلك الظروف ؟ إنه يعرف أن فوشيه حقود لا ينسى الإساءة. فخير لنابليون أن يكون هذا الرجل بالقرب منه، خارج فرنسا،

من أن يكون بعيداً عنه في باريس، وهو بعيد عن باريس !

لم تكن هناك وظيفة خالية، فابتكر نابليون لفوشيه وظيفة يشغلها، وعينه حاكماً لدولة بروسيا، قبل الإقدام على غزو هذه الدولة !

وقبل أن يذهب فوشيه إلى مدينة دريد، توطئة لاستلام منصبه، أصيب الجنرال جونو، حاكم أيليريا بإيطاليا، بالجنون، فعدل نابليون عن رأيه الأول، وأرسل فوشيه إلى أيليريا، خلفاً لجونو المجنون.

غير أن فوشيه لم يمكث طويلاً في تلك الولاية، فإن الهزائم توالت على نابليون، وكانت أيليريا إحدى الممتلكات الفرنسية التي دخلها الأعداء، فرحل عنها فوشيه، ولكنه حمل معه الكنوز والتحف والأوراق، ولم يترك شيئاً من ذلك نهباً للغير !

وعندما وصل إلى حدود فرنسا، عائداً من إيطاليا، علم بما حل بنابليون، وأن جيوش الحلفاء تتقدم نحو فرنسا، وأن عرش الإمبراطور مهدد بالانهيار.

وفي مدينة ليون - التي أحرقها إبان الثورة - علم بأن باريس سقطت، وأن نابليون هرب، وأن لويس الثامن عشر عاد إلى عاصمة ملكه، وأن تاليران، زميله وصنوه في الخيانة سبقه إلى الانضمام إلى الهيئة الحاكمة الجديدة !

حاول أن يفعل مثله ففشل. وقبع في داره ينتظر الحوادث. وكان لويس الثامن عشر يرتكب الخطأ بعد الخطأ، وأدرك فوشيه أن انقلاباً آخر سيتبع هذا الانقلاب الهزيل...

ولم ينتظر طويلاً...

ففي يوم ٥ من مارس عام ١٨١٥، علم الناس بأن نابليون عاد من جزيرة ألبا، ونزل على الشاطئ وزحف على باريس...

وفكر الملك في وسائل الحماية، ورأى أن يستغل مواهب الأشخاص الذين حوله، فدعا فوشيه وعينه وزيراً في حكومته.

فوشيه، الجمهوري السابق، الثائر، أحد الذين حكموا على الملك لويس السادس عشر بالإعدام، يختاره لويس الثامن عشر، أخو الملك الشهيد، وزيراً في حكومته ! إن

سخرية القدر لا تعرف حدوداً !...

لكن فوشيه ليس بالرجل الذي تخدعه المظاهر، فإن قبول منصب الوزارة، من ملك لا يقوى على الاحتفاظ بعرشه، عمل يعد في نظر ذلك الثعلب عملاً جنونياً خالياً من الحكمة.

رفض فوشيه المنصب.. فأصدر الملك أمره إلى مدير البوليس بالقبض على الرجل الذي لم يصدع لإرادته ويقبل الوزارة. ولكن فوشيه تمكن من الإفلات من يد البوليس، وهرب من منزله قبل القبض عليه !

الصراع الأخير : « ١٨١٥ »

في ١٩ من مارس عام ١٨١٥، عاد الإمبراطور إلى باريس. وفر منها لويس الثامن عشر. ودخل نابليون قصر تويلري حيث كان أنصاره ينتظرونه للترحيب به. فألقى نظره حواليه، ولكنه لم يجد بينهم النخبة الممتازة من أولئك الرجال الذين عاونوه في إخضاع أوربا وبسط سلطانه عليها. فالذين ظلوا على ولائهم له ليسوا كبار القواد ولا كبار الساسة.

كانت خيبة أمل لنابليون. ولكنه ابتسم عندما وقع نظره على فوشيه.. إن هذا الرجل هو الوحيد الذي يمكن الانتقام به في هذه الظروف، وإن لم يكن أهلاً للمحبة والثقة.

وقرر نابليون أن يعيد فوشيه - للمرة الثالثة - إلى وزارة البوليس. فقبلها فوشيه ولكن بدون حماسة لأنه كان ينتظر ويأمل أكثر من هذا، فإن جميع الذين كان نابليون يعتمد عليهم في الشدائد قد انفرطوا من حوله، فانضم فريق منهم إلى خصومه، وبقي الفريق الآخر بعيداً عن العاصمة، يرقب تطور الحوادث. والوحيد الذي جاء إلى الإمبراطور ووضع نفسه تحت تصرفه هو فوشيه.

لكن نابليون يخشاه ولا يحبه. وهو يستخدمه لأنه يشعر بحاجته إليه. وفوشيه من ناحيته لا يحب نابليون، ولكنه يخدمه لأن في خدمة الإمبراطور تحقيقاً لأغراضه هو وإشباعاً لميله إلى السلطة.

غير أن الظروف تبدلت. فنابليون لم يعد ذلك الرجل القابض على مصير العالم،

وفوشيه لم يعد ذلك الرجل الذي يرضى بوزارة البوليس !

وفي هذه المرة، لم يكن في حاجة إلى نابليون إلا لكي يستند عليه لاجتياز المرحلة الأخيرة من مراحل حياته العملية، التي كان يحلم بها، وهي أن يفرض على أوربا نظاماً جديداً يكون هو واضعه ومنفذه. أو بعبارة أخرى، أن فوشيه أدرك أن نابليون قد انتهى. وأن بقاءه في فرنسا لن يطول، وأنه هو الرجل الوحيد، في حاشية الإمبراطور، الذي يمكنه أن يدير دفة الحكم على هواه، ويفاوض خصوم الإمبراطور سراً، سواء في فرنسا أم في خارجها، ويعقد معهم الاتفاق المنشود لتقرير المستقبل.

وهذا ما صنعه، وهذا ما أدركه خصوم نابليون أيضاً، ففي الداخل وفي الخارج، جعل أولئك الخصوم يفاوضون فوشيه ولا يحسبون حساباً لسيده الإمبراطور.

دامت تلك المرحلة الأخيرة من مراحل العهد الإمبراطوري مائة يوم، كان فوشيه في خلالها دائم النشاط. ووضع الرجل خطة العمل وراح ينفذها بدقة. وكانت هذه الخطة ترمي إلى أحد هدفين : إما إبقاء النظام الإمبراطوري في فرنسا إذا انتصر نابليون في المعارك الأخيرة، وإما إعادة الملكية إليها في حالة انهزام الإمبراطور في تلك المعارك.

ولم يكن ضمير فوشيه ليؤنبه على استعداد لخيانة هذا أو ذاك من الطامعين في الحكم. فهو مع الإمبراطور إذا انتصر، وهو مع الملك إذا انهزم الإمبراطور.

وانهزم الإمبراطور فعلاً في معركة واترلو. وقال فوشيه فيما بعد : « يدعون أنني خنت نابليون. كلا.. فأنا لم أخن نابليون، وإنما الذي خانه انهزامه في واترلو !. ».

وفي تلك الحقبة القصيرة من تاريخ فرنسا، لعب الداهية فوشيه لعبة تعد من أبرع المناورات السياسية التي قام بها رجل على الإطلاق. فقد استطاع بدهائه ومكره، أن يحمل نواب الأمة على انتخابه رئيساً لمجلس النواب، وأصبح سيد فرنسا الأوحد، ولم يعد نابليون بالنسبة إليه صاحب سلطة حقيقية.

وسقط نابليون واضطر مرة ثانية إلى الهرب ثم سلم نفسه للإنجليز.. وبقي فوشيه في منصبه.

وحاول أنصار الإمبراطور المناداة بابنه دوق ريشتاد - النسر الصغير - إمبراطور

مكانه، فجاراهم فوشيه ثم خذلهم لما تبين له أن بقاء أسرة بونابرت على العرش أمر مستحيل.

وانضم الرجل مرة أخرى إلى الملكيين، وعندما دخل لويس الثامن عشر إلى باريس، للمرة الثانية، تسلم سلطته من فوشيه، قاتل أخيه !. لقد انتهت «الأيام المائة» وعاد الملك ثانية، وانقلب فوشيه ملكياً مع الملكيين !

السقوط والنهاية « ١٨١٥ - ١٨٢٠ »

أراد فوشيه أن يتزوج ثانية بعد وفاة زوجه الأولى. وفي عام ١٨١٥، شهدت باريس حفلة عجيبة.. حفلة زواج فوشيه بفتاة من أسرة كريمة. فأمام الهيكل، في الكنيسة، وقف ذلك الرجل الذي هدم الكنائس وأحرقها، وقتل الرهبان والكهنة، وشرد النبلاء، والأشراف، وحطم الصلبان وألغى مراسم الدين.. وقف فوشيه ليتلقى البركة من يد الكاهن، بمناسبة زواجه، وكان بين الشهود الذين وقعوا وثيقة الزواج، الملك لويس الثامن عشر، شقيق لويس السادس عشر، الذي أعدمه فوشيه !

لكن حاشية الملك الجديد تضمر له الشر، ولن يهدأ له بال قبل أن يقضي على ذلك الرجل المتقلب، الذي خدع الجميع وتحكم في الجميع. وهذا ما حدث.. فقد تآمر عليه الأشراف والنبلاء، وكان من بينهم الرجل الوحيد الذي كان فوشيه يخشاه، تاليران، الذي انضم مثله إلى الملك لويس الثامن عشر وأصبح وزيره النافذ الكلمة.

في هذه المرة، لم يستطع فوشيه التغلب على الصعاب التي قامت في طريقه، فاضطر إلى الانسحاب. وبعد أن طاف أنحاء أوربا، ذهب إلى ميناء تريستا، بإذن من الوزير النمساوي مترنيخ، وقرر الإقامة في تلك المدينة، والتمتع بالثروة الكبيرة التي جمعها، وكان ذلك في سنة ١٨١٩.

وفي ٢٦ ديسمبر عام ١٨٢٠، مات فوشيه في تريستا، ودفن فيها، منسياً، مهملاً.

لم يكترث أحد في فرنسا بموت ذلك الرجل الذي ارتعد العظماء أمامه مدة ٢٥ سنة. ولكن، في عام ١٨٢٤، عادت المخاوف تختلج في النفوس.. فقد أعلن أحد أصحاب المكاتب بمدينة براج أنه حصل على «مذكرات» فوشيه وعزم على إذاعتها.

مذكرات فوشيه ! إنها مليئة بالأسرار، فإن الرجل كان يعرف كل شيء، ويعرف على الخصوص أشياء يجهلها الناس كلهم ! غير أن المذكرات التي نشرت في براج لم تكن من الخطر بمكان. فإن فوشيه آثر الصمت بعد موته، كما لزم الصمت في حياته. وحمل هذا الرجل العجيب معه إلى القبر تلك الأسرار الهائلة التي كان يعرفها. لقد دفنها في صدره، ودفن هو معها في القبر.

تصور هذه القصة حقبة من الزمن في تاريخ فرنسا الزاخر بالمؤامرات الدنيئة والأعمال الدامية الرهيبة ، قصدت أن أقدمها هنا ضمن صفحات هذه المذكرات ، كي تعرف أيها القارئ العزيز .. كيف كان العالم يسير ؟... وكيف كانت فرنسا تعيش ؟... فرنسا التي أنجبتني وأخرجتني من بطنها ، كما أنجبت نابليون وفوشيه وتاليران وغيرهم من العظماء والسفهاء .

obeikandl.com